# الدلالي والجمالي في رواية «السيل» لأحمد التوفيق

الدكتور أحمد زنيبر - المغرب
أستاذ باحث - الرباط

حققت الرواية المغربية، على فترات زمنية متعاقبة، انتشارا واسعا، تجلت معالمه في توالي الإصدارات المتباينة، بناء وتصورا وموضوعا، من جهة، وما صاحب ذلك من متابعات ودراسات نقدية متنوعة، على مستوى التلقي، تفاوتت توجهات أصحابها مذهبا ومنهجا وتحليلا، من جهة ثانية.

وقد تحكمت في هذا الذيوع الروائي المعلوم، جملة أسباب موضوعية ورمزية، منها وفرة الطرائق التعبيرية، التي يقترحها هذا الجنس الأدبي، سردا ووصفا ورسالة، ومنها كذلك جملة الخصائص الفنية والأسلوبية، التي يختزلها كعناصر بنائية داعمة له، لغة ومعجما ودلالة.

ومن ثمة، لا غرابة أن نجد بعض الأقلام الإبداعية بالمغرب قد انتقلت من كتابة الشعر أو القصة القصيرة مثلا، إلى كتابة الرواية، وأن نجد منهم من امتهن الطب أو الفلسفة أو القانون؛ لكنه لم يجد ضالته الأدبية إلا في رفقة الرواية، اختيارا وتمثلا وتعبيرا. ولعل أحمد التوفيق يعد خير شاهد على ذلك. فمن التاريخ والكتابة في التصوف، يلج هذا الأخير، عالم الرواية ويعزز المشهد الثقافي بأربعة أعمال متميزة قمينة بالقراءة والمتابعة والمساءلة، هي على التوالي: "جارات أبي موسى" و "شجيرة حناء وقمر" و "السيل" ثم "غريبة الحسين".

وتعنينا في هذه المداخلة المتواضعة، روايته الثالثة الموسومة بـ"السيل" باعتبارها المنجز الثالث في مساره الإبداعي، من جهة، وبوصفها تمثل جزءا من تجربة الكتابة لديه، من جهة ثانية. فماذا عن المنجز الأدبي؟ وما نوعية القضايا والأسئلة التي يطرحها؟ وبالتالي، إلى أي حد يمكن الحديث عن قيمة أدبية مضافة تتخلل مادته الحكائية؟

## في المنزع الدلالي:

لاشك أن أول اتصال أدبي يحدث بين القارئ والنص، يتم عبر العنوان الذي اختاره الكاتب لمنجزه الروائي "السيل" باعتباره عتبة مركزية توجه، بصورة أو بأخرى، عملية القراءة وتخدم مسار البحث والتحليل النقدي. فكلمة السيل لفظة مفردة معرفة بـ"ال" تدل على معين. هذا المعين حدث له صلة بالطبيعة، في ارتباطها الوثيق بالزمان والمكان. إنه مطر جارف ينحدر من أعلى الجبل إلى الأسفل، لا يخبر بموعد، ولا يستأذن بقدوم. فيض مائي هو، حيث الحركة والاندفاع والقوة والسرعة، يأتي على الأخضر واليابس، يدمر ما حوله ولا يتراجع، فتحصل الكارثة، وقد تجاوز الطبيعة إلى الإنسان، في ذات الآن. وبين الفجائية الكاسحة والفجائعية الجارحة، لا يبقى إلا الأثر وشظايا الغضب. كل هذه الإحالات وغيرها، نجد لها موقعا ضمن أحداث ووقائع الرواية ونجد لها – أيضا - ملامح وعلامات تمس درجة الوعي في تجربة الكتابة.

ولعل اختيار أحمد التوفيق لروايته عنوان "السيل"، كونه حدثا طبيعيا، عائد بالأساس لما في ذلك من دلالة قصدية ورمزية معا، في بناء الحكاية، من ناحية، ولما له من وقع بليغ على مسار بطلها الرئيس، من ناحية ثانية، ولما تثيره العلاقة بين الحدث والشخصية أو الشخصيات من أسئلة وقضايا وجودية متعددة، من ناحية ثالثة، نجملها في ثلاثة أسئلة جوهرية كبرى، هي:

### * سؤال القدر بين القبول والرفض

تقترح الرواية حكاية رجل بسيط عاش حياة متقلبة بين القرية والمدينة، خلالها تنازعته أحوال الطبيعة، بدفئها وقسوتها، وغالبته تناقضات الزمن، بخيره وشره. حكاية تقترب من عالم السيرة بكل تداعياتها المختلفة، حيث استحضار الذاكرة واستدعاء الماضي من أجل استقصاء دقيق وعميق لكل المراحل والمفاصل، التي تؤثث فضاء الشخصية الروائية، في انفعالها وتفاعلها بالذات من جهة، وبالواقع والأشياء من جهة ثانية.

يتولى الروائي، على امتداد ستة وعشرين فصلا تفاوتت مساحتها الورقية حجما ومحتوى، بضبط إيقاع السرد وفق تسلسل زمني للأحداث، صعودا ونزولا، دون التفريط في العناية بوصف الأماكن والشخصيات المساهمة في تفسير طبيعة العلاقة بينها وبين الشخصية الروائية. وقد شكل حدث السيل مادة خصبة حركت، عبر اللغة، الحكاية وأسرارها، وكشفت قضاياها المعروضة عن نوعية الخطاب ورمزية الرسالة.

ومن ثمة، كان الجمع بين الحدث والشخصية، في اتصالهما وانفصالهما، مقوما بنائيا اعتمده الكاتب في طرح أسئلته الوجودية وتأملاته الفكرية، أثناء عملية السرد. فماذا عن بطل الرواية؟ وما علاقته بحدث السيل؟

يقدم السارد، منذ الأسطر الأولى، بطل الرواية بوصفه شخصية محورية تدور حولها الأحداث والوقائع، وتتحكم في مساراتها الإنسانية صور مختلفة تنسجم وطبيعة المواقف والحالات النفسية التي تؤطرها. ومادام سارد الرواية من النوع العارف والعالم بكل تفاصيل وجزئيات الحكاية، إذ هو المخطط لمسار البطل والضابط لإيقاعاته المختلفة؛ فإن عملية الحكي تمت بشكل تدريجي تنتصر للفعل حينا، ولردة الفعل حينا آخر. ولعل حضور فعل الكينونة (كان) بدلالته الماضوية، داخل النص، يؤكد حرص السارد أثناء عرضه لسيرة البطل، على تراتبية الأحداث وتسلسلها المنطقي، من البداية إلى النهاية، من جهة، وما يستتبع ذلك من معاينة وصفية تتعلق بالأفضية والأمكنة وبملامح الشخصيات وسلوكياتهم، من جهة ثانية.

وهكذا، قبل أن يعرض السارد لحدث السيل، يعرف بشخصية (محمد بيزين) ويبسط القول، حكيا واستطرادا، في ظروف الولادة والنشأة. يقول:

"كان محمد بيزين راعيا عند أسرة آيت بلا في قرية بقدم جبل الأطلس الكبير. وقلما ناداه أحد في صباه باسمه، محمد، ولم يدر هو ما معنى لقبه بيزين ومن سماه بذلك الاسم. لم يعرف أباه، لم ير أمه، لأن الأب في الحقيقة كان، على ما سمع الولد، عطارا أصله من الساقية الحمراء." (ص٥).

والواضح أن أول ما يصطدم به هذا الطفل كان هو قدر اليتم والحرمان. فهو المولود الذي نزل إلى الدنيا من دون أن ينعم، مثل باقي الأطفال، لا بطعم الأبوة ولا بفرح الأمومة، فقد توفيت الأم أثناء المخاض، وفر الأب بعد علمه بحملها بأشهر. غير أن القدر، بوصفه قوة فاعلة في النص، سرعان ما أبان عن تعاطفه مع البطل حين تولته أسرة اعتنت به وضمته إليها...

ومع الأيام، يظهر البطل/الطفل نباهة وذكاء وقدرة على العمل؛ غير أن مكر الأطفال وتآمرهم عليه في غير ما محاولة، ضاعف إحساسه بالنقص والدونية، وعمق شعوره بالحزن والألم والقرف من الناس ومن الحياة، على إثره تولد لديه رغبة في الرفض والثأر والانتقام. يقول السارد:

"ومع توالي الأيام تكاثرت أخطاء بيزين في حق سيده، فقد صار مندفعا لارتكاب الهفوات وهو يعرفها، كأنه يجد راحة ما في الخطيئة، فقد تعددت تشكيات الذين اعتدى بيزين على أولادهم بمختلف أنواع العدوان، ووقعت الوشاية به لسيده لأمور كان يقترفها، منها أنه كان يحرص في مسارحه على منع الفحول من طرق الأبقار، يجد لذة في ذلك الحرمان، لا يدري أكان ذلك انتقاما من الثيران أم من الأبقار أم من أسياده أم من الحياة!؟." (ص١٥).

ويتمكن الطفل، بعد مدة من حالة الرفض، من استرجاع توازنه واعتداله حينما تلقى من سيده أنواعا من العقاب القاسي، من جهة، وحينما أحس بالفرح والارتياح يوم أوكله، هذا الأخير، عملا جديدا، من جهة ثانية. فرعي الغنم بالغابة عوض البطل أيام الملل والضجر، وأشعره بقيمة نفسه التي جبلت على المخاطرة والرغبة في التحدي والمغامرة. ومن وقتها ألف محمد بيزين الغابة واستأنس بها، مكانا بديلا عن مسارح البقر وتفاهة البشر، وارتضى حياته لمدة صار خلالها الجبل جزءا من هويته يرعى في سلام صحبة كلبين مروضين وناي صنعه بيده!. يقول السارد عن هذه الألفة:

" لم يصطد بيزين من طير الغابة وحيوانها لأنه يشعر وكأنه قطع معها عهدا على ألا يفعل ذلك، وهكذا دخل مع أهلها في وئام أبدي، ثم إنه يؤمن بأن هذه المخلوقات التي تسكن الغابة أكثرها مسكون بالجن، آمن بذلك منذ أن وقعت قصته مع ذلك القنفذ الذي سلخه في صغره وأورثه حالة بكاء يعتريه وصرخة تفتت الأكباد." (ص١٩).

وفي ظل هذا التحول الإيجابي، في مسيرة البطل، حيث التصالح مع الذات والاطمئنان إلى المكان، فضاء للهدنة والأمان، يواصل الكاتب/السارد عرض حياة البطل بيزين؛ إذ يتعرف هذا الأخير على أرملة اسمها "لومي"، حركت مشاعره ووجدانه، ثم صار يلتقي بها دونما اكتراث بالناس أو بتقولاتهم المغرضة. لقد أحس بيزين مع هذه المرأة بالفخر والنخوة وقدر فيها شهامتها واهتمامها الكبير به. فهي "في الحقيقة أكثر من امرأة" بتعبيره(ص٢٥) وكثيرا ما حرضته ليثور على كل من حواليه، ويوقظ ذلك الإنسان/ الرجل داخله، ويغير من مواقفه السلبية ما استطاع إلى ذلك سبيلا وعملا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١) وتبعا لذلك، تحضر المرأة بكل ثقلها الأنثوي والإنساني في الرواية،

وتصاحب البطل في مختلف تحولاته وتبدلاته لتكون له خير معين، حين يحل به سخط الحياة. وما استثمار الكاتب لهذا الحضور النسائي؛ إلا ليمنح البطل بعض التعويض المعنوي عن غياب المرأة/الأم في حياته. ومن ثمة، يعيد للذات الإنسانية بعض التوازن والاستقرار النفسي.

لكن سوء الطالع، مرة أخرى، جعل الرياح تجري بما لا تشتهيه سفن البطل، حيث كسرت مجاديفه، وعاكست نجاحاته، فاختلط عليه الحابل بالنابل، والحلم بالحقيقة، والأمن بالخوف، والقبول بالرفض، والأمل باليأس والخيبة. فها هو ذا السيل، ذات صيف وفي يوم من أيام شهر (غشت)، يطيح برؤوس أغنام سيده جلها، ويفقده كلبيه الأليفين معا، فيما هو نائم يحلم بكوابيس مرعبة سرعان ما تحققت في عالم اليقظة، فقد حلت الكارثة المروعة وانتشر الخبر في القرية بسرعة البرق.

ذهل بيزين مما حصل، وتألم مما رأى، وتنازعته هواجس الخوف والألم، وركبته نزعة التحدي والانتقام. ولم يدر ما إذا كان هذا الحدث الطبيعي قضاء وقدرا له فيه خير، وهو الذي لا يستطيع لرد القضاء سبيلا أم شرا مستطيرا أتى ليدمر حياته، ويزيد ذاته تشظيا وتمزقا!؟. فكر في الهروب، لكنه تذكر فرار والده العطار فكره هذا الاختيار! وفضل البقاء بالقرية ومواجهة مصيره، بكل ما أوتي من قوة وثبات. يقول السارد:

"وهكذا قرر أن يبقى، أن يستسلم للقدر، أن يواجه الغضب والعقاب من لدن أصحاب الغنم والآخرين من المتفرجين والمتقولين، وقرر أن يبقى على الخصوص حتى يواجه صاحبته لومي ويقول لها: ها أنت قد حققت ما كنت تسعين إليه، أن تحرريني عبر العذاب، أن تدفعي بي إلى الهجرة. أنت السبب! إنه متيقن أن السيل هو جواب الغابة الذي كان يتوقعه، جوابه عن الأحلام التي رآها عندما صعدت إليه لومي في الجبل، ولكنه ليس متأكدا مما إذا كانت تدفعه إلى نهاية هي خير له أم إلى حتف هو شر له..!؟" (ص٣٥) وحين عاد بيزين إلى نقطة البداية، حيث التلاشي وقلة القيمة، تعرض لأسوأ معاملة وتشنيع من لدن سيده وأهل القرية، كما مارس عليه ابن شيخ القرية أشد العقاب فيما اتهمت معه الأرملة "لومي" وابنتها "منوش" بالمشاركة. ولم تنته محنة البطل إلا بتدخل رجال السلطة. فكان ذلك بعضا مما خفف عنه وطأة العذاب، وأعاد له الاعتبار مرحليا قبل أن يغامر بالهجرة نهائيا بحثا عن ذات/رجولة مفقودة ومفتقدة داخل القرية.

يقول السـارد: "صـار بيزين بعد الذي وقع يتردد علانية على دار لومي وهي تفرح به وهي تحرضه حتى يهاجر ويكون رجلا" (ص٤٧).

فأين كانت الوجهة؟ وهل حقق بيزين ما كان يصـبو إليه؟ ومن هم الشخصـيات الجديدة التي ناصرته أو خذلته أثناء هذه الرحلة؟!

*** سؤال الذات بين الخير والشر**

لم يفت السـارد، وهو يتابع رحلة البطل الوجودية وتموضـعاته بين حالات الرفض والقبول، والسـخط والرضى، والكفر والإيمان.. أن يضـع اليد على بعض المسببات، التي كانت وراء هذه الرحلة نحو المجهول، وبالتالي تقديم أحكام وخلاصات بشأنها، كلما وجد لذلك مبررا. فإصرار "لومي" وإلحاحها على السفر كان دافعا قويا لكي ينطلق البطل في رحلة البحث عن الذات.

يقـول السـارد: "احتقن وجهه وهو يصـرخ، ثم أجهش بالبكاء... وارتمـى في ذراعيها... احتضنته وبكت وقالت: اذهب، اذهب، أريدك أن تكون رجلا. فمنذ سافر أخي صار رجلا. لا أريد أن تبقى مسخرا لهؤلاء، لا أريد...!

فقال بيزين: ولكنني ألفتك وصعب علي أن أفارقك.

فقالت المرأة: أنت صـغير السـن، وهذه ألفة الصـغار، وتصـلح لك بنتي عندما تعود، إن بقيت راضيا بنا.

عاد بيزين إلى بكائه من جديد أمام المرأة وبكت هي أيضا" (ص٥٠).

إن استسـلام البطل وتقبله للقدر، من حيث هو سـلطة غيبية تحكـم العالم بمنطق الخير والشـر، جعل أحـداث الرواية تنسـاب وفق تبدلات المـكان والزمان والإنسـان. فعالم ما وراء الجبـل بدا غريبا وعجيبا في نظر البطل مقارنـة مع حالته الأولى بالقرية. ولما كان لزاما على البطل كسـب رهان هذه الرحلة/المغامرة، كان عليه بالمقابل أن يتأقلم مع الوضـع الجديد في المدينة، ويدخل في علاقات وتواصـلات متنوعة مع أهلها وناسـها. كما كان عليه أن يتعلم لغة المدينة، ويلبس لباسها، ويخبر أسرارها.

ولعل الكاتب لم يتوان لحظة في رصـد مختلف التحولات، التي عاشـها البطل، في سـنواته الأولى داخل المدينة، مظهرا وسلوكا ومواقف، فقد رسم له بعض الصور الرائقة عن إخلاصه

في العمل، وتفانيه في الخدمة، وسعيه وراء الكسب الحلال في صبر وأناة، حتى صار حديث مجالس في المدينة وفي القرية، وذاع صيته في الآفاق. كما تابع شذوذه وانحرافه وعدوانيته وهو في غمرة النجاح والاستعلاء. وهما منزعان اثنان (الخير والشر) ظلا في وجدان البطل يتصارعان وعرضاه، في كثير من الأحيان، إلى الاضطراب والاختلال.

لقد شكلت المدينة بالنسبة للبطل، من خلال ملاحظاته ومشاهداته عالما مغريا بالبحث والتأمل والطموح والرغبة. غير أنها كانت، إلى جانب ذلك، مدينة تعج بالفتنة والمتناقضات قلبت مسار البطل ذات اليمين وذات الشمال ليجد نفسه أسير إغراءاتها غير المتناهية. إنها بتعبيره "أكثر من مدينة واحدة، فهي مدينة صاحب الميزان، ومدينة الفئران، ومدينة المنقبين وأواني القمامة، ومدينة العاملات اللائي يأتين في الفجر إلى المعمل، ومدينة الأشرار الذين اعتدوا عليه، ومدينة دار فارياس، ومدينة زوجته فيبي... في كل مرة يحسب أنه انتهى إلى آخر العلم والإعجاب بالمدينة، فتنقله الرياح إلى جهة أخرى فيقف على جديد لم يكن يتخيله" (ص٦١).

وتحضر المرأة، من جديد، فضاء المدينة مثلما حضرت سلفا فضاء القرية، فيحتار البطل في سلوكياته واختياراته، كما يحضر هاجس السيل لديه، في غير ما مناسبة، فلا يدري أنقمة كان أم نعمة!؟ وهكذا حين استبد شبح المدينة بالبطل وسلخه من قيم القرية، تطورت لغته وتغيرت مواقفه، سلبا وإيجابا. أحب المال، وأحب النساء، وكاد المكائد، ودبر الدسائس لغيره من أجل البقاء وارتقاء المناصب، حتى صار "ولدا أسطورة تتمنى النساء أن تلد مثله، وعريسا تتمنى كل امرأة أن يكون خطيبا لبنتها!" (ص٧٠). لكن دوام الحال من المحال، كما يقال، فقد شاء الله أن تعصف تقلبات الأيام بالبطل الزعيم وتحول نعيمه إلى شقاء وتعاسة، جراء ما بدر منه من خطايا الاستقواء، والارتشاء، والفحشاء. وما صراع الخير والشر داخله إلا أحد الأسباب التي كانت وراء ضلاله واضطرابه. ومن ثمة، لم يعد بحث البطل عن الذات، إذن، هدفا وغاية كما تسطر في البداية، فقد استغنى وطغى وتجبر، فكانت الانتكاسة والضياع والقهقرى، والدخول في متاهات ملتوية لا قرار لها، فالفشل، واليأس والسجن، والرعب والخوف، والألم والحيرة.. كلها كانت له بالمرصاد، وصارت معها فكرة الرجوع إلى القرية مطلبا مبررا.

يقول السارد على لسان إحدى شخصياته: "المال الذي في هذه الحقيبة يعادل مجموع ما تلقيته من أجرتك منذ جئت إلى المعمل، وهو في الحقيقة نصف أجرتك، كنت أدخرها لك، ويزيد عليه بمقدار ما تحتاج إليه لإقامة عرس بهيج في قريتك، تتزوج وتأتي بعروس تغار منها كل نساء المعمل، ولا تصلح لها خادمة أي من هذه الراقصات اللائي يأكلن مالك في السهرات، عيشك الله أيها الزعيم! اذهب شهرا كاملا إلى قريتك بمناسبة هذا العيد، وعد لنا بعروس!» (ص٨٥). فهل وجد البطل ضالته؟ وكيف آلت عودته إلى بلدته/الأم؟

*** سؤال المصير بين الحاة والموت:**

بعد تسع سنوات من البحث المضني بالمدينة عن مبرر للوجود، وضياع في متاهات مفتوحة لا تنقضي، عزم البطل أخيرا، على الرجوع إلى القرية عملا بنصيحة سيده، من جهة، وهربا من خبث المدينة ورذائلها، من جهة ثانية. وخلال تلك السنوات التي جمعت بين النعمة والنقمة، توافرت للكاتب مجموعة من المواقف والوضعيات المختلفة، التي سمحت بتكوين فكرة تقريبية عن طبيعة الشخصية الروائية وما يميز وجودها الواقعي والافتراضي، في الوقت نفسه. وشكلت بالتالي زادا روائيا قابلا للمساءلة والمتابعة.

غير أنه إذا بدت عودة البطل موفقة غاية التوفيق في البداية، حيث ترحيب الأهل والأصدقاء والجيران، وحيث الحفاوة والتكريم والامتنان، كونه حقق النجاح وشرف القرية والوطن؛ فإن ذلك سرعان ما تلاشى أمام سيل الأحداث الجسام الجديدة، التي وطنت صراعه الداخلي وعمقته خاصة حواراته مع «لومي» حبه الأول، وخلافاته مع أخيها «حوسا» حول عدد من القضايا المرتبطة بالمواقف والاختيارات الفردية، وكذا المرتبطة بالمشاعر وبالهموم الصغيرة منها والكبيرة. وحين احتد الصراع النفسي داخله لم يجد سوى تلك الغابة مقصدا وملاذا.

إن قدر البطل في هذه الرواية، أن تتقاذفه أمواج الحياة، بخيرها وشرها، وأن تتوزعه شواغل وعوامل كثيرة تمكنت منه حد التماهي فاستحال عليه، لضعفه الإنساني، الانفلات منها. فبقدر انفراج أيامه كان خوفه من كوابيسها وأحلامه، وبمقدار نجاحاته كانت إخفاقاته. فذكريات السيل، وضياع ماله، وحيرته في الاختيار بين نساء أحبهن، وتدهور حالته العقلية والصحية.. وغيرها من الأحوال المؤلمة عجل بسقوطه، ولم يعد أحد يعيره أي اهتمام.

يقـول الســارد: «عاد بيزين إلى الـدار ذات ليل ولم يحفل به الناس لأنه صـار معدودا في البلهاء المجانين، فقصـته لم تعد سـرا لأحد، وقد صـار مظهره يخيف الجميع، فوجهه ينضح بالعرق بين الحين والآخر، ويثير حنق من يسـترقون إليه النظر، وهو لم يحلق شعر لحيته منذ ليلة المطر، كانت تتعاوره حالات من الذهول وحالات من التمييز، إذا ذهل سال لعابه وتكلم في نفسه وأشار إشارات وغمغم، وإذا ميز وجم واستغرق أو بكى!»(ص١٢٦).

وأمام كم اليأس والإحباط والفشل هوت الذات، ذات البطل، إلى مهاو سحيقة، واتضح للمرأة «لومي» حقيقة كون البطل «بيزين» همها الأوحد وحدها، وعبثا تحاول إقحام ابنتها في تلك القصـة. وهكذا رغم تنكر أهل القرية للبطل، حين سـاءت أحواله، ظلت هي إلى جانبـه وفية ترعاه وتنفق عليه حتى نفد مـا بيدها متحملة عنفه وجنونه وهذيانه، إلى أن سـقطت مغشـيا عليها، ذات يوم، حين رأته جثة هامدة بالغابة. وحين ظهر المال المفقود، مال البطل المفجوع عليه، قيل في شأنه أقوال وأقوال، وما ظفرت «لومي» الأرملة بشيء من إرث البطل لأنها كانت تفتقر إلى بينة! على ما في ذلك من إشارة سريعة إلى وضعية المرأة ونظرة المجتمع لها في غياب راع يحمي حقوقها ويضمن أمنها واستقرارها.

وهكـذا يكـون الكاتـب السـارد قـد أثـار الانتبـاه، من خـلال تتبعـه الدقيق لمسـار الشخصـيات وعلاقتهم بحدث السـيل وغيره، إلى جملة موضوعات تحمل قيما إنسانية ودينية واجتماعية مختلفة، كالحب والجمال والتضـامن والتسـامح والصبر والعدل وما سـواها. وكلها قيم دالة عبر عنها، بغير قليـل من المتعة الفنية، التي تعكس حيوية المعنى وديناميته في الرواية.

## في المنزع الجمالي:

لا يمكـن الحديث عـن دلالات رواية السـيل لأحمد التوفيق مـن دون الحديث عن الجانب التعبيري، الذي يسـتقي عالمه من اللغة والخيال. فالكاتب كان شـديد العناية باللغة بوصـفها ترجمة خالصـة لوقائع الرواية وأحداثها، وغوصـا عميقا لنفسـيات شخوصها الرئيسة. ولعل رصـد الحقول المعجمية في الرواية تكشـف عن مظاهر القلق والتوتر والصـراع داخل المجتمع البشـري خـلال مرحلة مـن تاريخه، وعبر هـذه المظاهر وما سـواها تقـدم الرواية المقترحة «السيل» قراءة فنية وموضوعية للذات والكون معا.

كما أن استناد لغة الرواية على تقنية الاسترجاع، جعل الذاكرة تحضر بقوة حيث أوكل لها تأثيث المشاهد وترتيب الوقائع، بحسب السياق والمواضع.

يقول السارد مثلا: «أما بيزين فكان يتفرس في الوجوه ويتذكر ويتذكر.. ويتخيل لومي، وقد بلغها خبر رجوعه، ويعود ليتفرس في الوجوه، ويعجب من الانقلاب الذي حصل في معاملتهم تجاهه. ولما وضعوا أمامه قصعة الكسكسون وعليها خروف بكامل هيأته، أوشك عند رؤية منظر الخروف أن يتقيأ؛ لأنه يتذكر السيل وكراع الغنم تبدو من فوق الرمال، قد احتقن وجهه وضاق تنفسه وطلب الماء، فشرب ثم سري عنه، وتنفس الصعداء ولم يشعر بما وقع له. لكنه أكل الكسكسون والخضر ولم يمس اللحم»(ص٨٩).

ولما كان الاسترجاع والتذكر والتخيل لصيقا بالحلم، بمعناه الشامل حيث يختلط بعالمي الحقيقة واليقظة؛ فإن هذا الأخير بدا مهيمنا هو الآخر، في كثير من الحالات التي تبدت فيها الرغبة ملحة، عند الشخوص، في التغيير والارتقاء، تارة، وفي مواجهة الخوف والفشل، تارة أخرى.

أما عنصر الحوار، بما فيه الحوار الداخلي وحديث النفس، فكان فرصة للأبطال كي تتحدث عن نفسها، وتنفس عن مكبوتها، وتبوح بأسرارها، وبالتالي تحقق تواصلها مع الذات ومع الآخر، قبولا أو رفضا، تعاطفا أو تعنيفا. وتبعا لذلك جاءت لغة الحوار منسجمة مع الشخصية الروائية المتخيلة، معنى وأداء، (بسيطة أو مركبة، منقبضة أو منشرحة، راضية أو ساخطة..) وهو ما أكسب الحوار تنوعا وخصوبة كونه استراتيجية تدعم عملية السرد.

يقول السارد في هذا الشاهد الحواري الدال: «نام بيزين نوما تتخلله كوابيس:

- كان يقول في بعضها: السيل.. السيل، أنا لا أحب السيل، السيل لا يرحم! ولما فتح عينيه عند الظهر وجد الزوج والزوجة والأولاد حوله، فقال: لن أعود إلى المعمل، أريد أن أعود إلى الجبل، بعيدا عن هذه المدينة الخبيثة.
- فقالت له فيبي: ما تريد فيما بعد، فنحن أخرجناك بوسائلنا ولا يجوز أن يعلم أحد بذلك. أرجوك، لا تصرخ!
- فقال بيزين: أخرجتموني! وهل أخرجتم الآخرين؟
- فقال فرياس: لا أستطيع، إن الأمر خطير، خطير جدا، لا يتصور!

- قال بيزين: إما أن تخرج الآخرين وإما أن أذهب إلى الوطن ويأتوا ليحرقوا معملك أو يقتلوك.

- قال فرياس وقد استبد به الهلع مما سمع: فهل هذا جزائي معك؟ اسمع! اسمع! قلت لك: الأمر خطير!

كرر بيزين تهديده وقام على رجليه كمن لا يشكو من شيء وعيناه جاحظتان بعد أن كانتا مغمضتين وهو يرتعد!

- قال فارياس: لا! لا! اهدأ، اهدأ، سأحاول، سأعمل ما في جهدي.

- قال بيزين: أعطهم المعمل وأخرج المسجونين، فهم في السجن بسببك.

تعجب بيزين من جرأته، وتعجب من هذا الفهم الذي جد عليه ولم تكن له به صلة قط، وقال في نفسه: هل أنا محق في هذا الموقف»(ص٧٧ - ٧٨).

وفي سياق تجميل الرواية دائما، ينتصب الوصف مجالا أرحب لعرض الصور والألقاب والنعوت وتعقب الأماكن والمواقع، بل وكل ما له صلة من قريب أو بعيد بعالم الشخوص. لقد تنوعت المقاطع الوصفية وامتزجت بلغة السرد، صعب معها فصل الاثنين داخل الحكاية المقترحة.

يقول السارد في مقطع وصفي: «لقد جاء أطول من في المركز وأضخم. عملاقان على رأس كل منهما قبعة مدورة تلمع خيوط توشية دائرتها المذهبة، صعصعتان حليقا اللحية طويلا الشاربين، ولكن الأنظار تركزت على وسائل العذاب التي تتفطر لها الأكباد: الحزام العريض المرصع بمسامير نحاسية غليظة، والحذاء الضخم في الرجل. فكل شخص في القرية قد سبق له أن سمع بهذه الوسائل، يخاف الضرب بهذا الحزام والركل بهذا الحذاء الذي تحته مسامير»(ص٤٠).

وبين هذا الاختيار أو ذاك، أفاد الكاتب من معارف ومجالات عدة تخللت عوالم الحكاية، عبر لغة إيحائية رمزية أحيانا، وتقريرية مباشرة أحيانا أخرى، مثل ما نجد في توظيفه للتاريخ السياسي والاقتصادي، واستثماره للمخيال الشعبي والاجتماعي، واستحضاره للخطاب الديني الإسلامي.. وغيره؛ مما أسهم في تعميق الرؤية العامة المشكلة لأطروحة الرواية.

## خاتمة

لاشك أن الروائي وهو يعيد صياغة الوقائع من خلال شخوصه وأحداثه يفتح أمامنا آفاقا مشرعة على الاحتمال والتأويل لمجريات الحكاية. فالذات والهوية، والسفر والحرية، والتاريخ والوطن، والموت والحياة، والقضـاء والقدر.. كانت من أهم المرتكزات الموضوعية، التي استند إليها الكاتب واجتهد في تحويلها، عبر وسـيط اللغـة والذاكرة والخيال، إلى نص روائي عميق زاوج بين إيقاعي السرد والوصف، وآلف بين الدلالي والجمالي، في براعة وإتقان.

بهـذه الرواية الممتعة أبان أحمد التوفيق عن مقدرته العالية في الحكي، واسـتخدامه البين لثقافته الواسعة، مما يحق للقارئ المتلقي أن يفخر به روائيا متميزا، وأن يعد متخيله الروائي إضافة نوعية في الحقل الإبداعي المغربي والعربي، دون منازع.

## المراجع:


١- السيل. أحمد التوفيق. دار الأمان. الرباط. ١٩٩٨

٢- تحليل الخطاب الروائي. سعيد يقطين. المركز الثقافي العربي. ١٩٨٩

٣- الرواية والتغيير الاجتماعي. محمد الدغمومي. إفريقيا الشرق. ١٩٩١

٤- بناء الرواية. سيزا قاسم. دار التنوير. ١٩٨٥

٥- الخطاب الروائي. ميخائيل باختين. ترجمة محمد برادة. دار الأمان. ١٩٨٧

٦- مجلة المشكاة. العددان ٣٦/٣٧ - ٢٠٠١

٧- مجلة المشكاة. العدد ٥٠- ٢٠٠٧